أسس الحضارة الإسلامية

الباحث عبد الجليل قراط
أستاذ وطالب باحث بسلك الدكتوراه
تحت إشراف الدكتور محمد خروبات
مختبر الدراسات والبحوث الفقهية وقضايا الهجرة والأقليات
تكوين مدارك الاجتهاد في المستجدات الإنسانية المعاصرة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش.
المغرب

مقدمة

الحمد لله الذي أوحى إلى نبيه محمد ﷺ سُنَّتَهُ كما أوحى إليه القرآن وحيا، وخصها بالتشريف والتكريم ونفى عنها الهوى نفيا، وجعلها سارية إلى يوم البعث، هادية لمن أراد الرشاد وسعى إليه سعيا، والصلاة والسلام الوارفان على من كُتِب عند الله نبيا وإن آدم لَمُنجدل في طينته، المصطفى بِشَرَفِ نسبه وعظمة خُلُقه ونقاء سيرته وطيبِ سريرته، وعلى آله وصحبه وقُفاةِ أثره إلى يوم حلول شفاعته، وبعد،

فليس من قبيل الصدف أن يختار الله عز وجل الجزيرة العربية مبعثا لرسوله محمد ﷺ ومنطلقا لرسالته العصماء نحو العالمية؛ فقد كانت محاطة بحضارتي الفرس والرومان اللتان كانتا غارقتين في الانحلال الخلقي والفساد العقدي رغم كل ما تمتلكان من مقومات القوة الاقتصادية والعسكرية، فسادٌ يرجع بالأساس إلى طغيان التيارات الفكرية الفاسدة، والفلسفات المبتكرة الهدامة التي تُعلي قدر المادة ولا تقيم للدين الوزنَ البتة. في المقابل كانت الجزيرة العربية تعيش عِيشة البداوة البسيطة البعيدة عن كل مظاهر المدنية والتحضر، كما كانت بمنأى عن السجالات الفلسفية والمذهبيات الفكرية الشاذة، وكان سكانها يعيشون في كيانات قبلية متنافرة غير خاضعة لأي سلطة مركزية، وكان مفهوم الدولة . . . . بمؤسساتها المدنية وجيشها النظامي . . . . غير معروف قطعا، ورغم ما يطبع حال أهلها من انحرافٍ في الدين وسوءٍ في المعاملة فإن الجزيرة العربية لم تتحلل كليا من بقايا الحنفية الإبراهيمية التي أَبْقَت العرب على الفطرة، وتركَتْ في النفوس قدرا من الشهامة والإباء وعزة النفس، فلعل الله اختارها مهدا للحضارة الإسلامية من أجل ذلك كله، وحتى لا يقول الناس إن محمدا ﷺ بنى حضارته على أنقاض حضارة سابقة.

عطفا على ما سبق، فإن أي بناء حضاري في الجزيرة العربية سيكون . . . لا شك . . . . مستحيلَ التحقق دون وجود منهج تغييري شامل يقوم على أسس متينة. ولهذا فقد استدعت العملية التغييرية النبوية وجود ذلك المنهج العملي الذي يتوافق مع سنة الله في خلقه من جهة، ومع جميع القوانين الإنسانية المتزنة من جهة ثانية؛ منهج يقوم على شرع الله ويرتقي بالإنسان ويخلصه من كل ما يَشين حياته ويفسد آخرته. ولعل الناظر المتأمل في السيرة النبوية المشرَّفة . . . . من خلال القرآن الكريم وكتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي . . . . . سيلاحظ حرص النبي ﷺ على إقامة مجتمع يكفل للإنسان المسلم كرامته، ويضمن بقاءه خليفةً لله في الأرض يبنيها ويعمرها، وهذا ما سَرَّع قيامَ الحضارة الإسلامية خاصة بعد الهجرة النبوية.

وانسجاما مع هذا يأتي بحثي الموسوم ب: **"أسس الحضارة الإسلامية"**، والذي يروم استجلاء ما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى.

وقد قسمت البحث إلى مطلبين اثنين:

المطلب الأول: القدوة الرسالية

لا ريب أن قيام حضارة إنسانية في الجزيرة العربية قبيل البعثة النبوية الشريفة كان يعد ضربا من ضروب المعجزات بالنظر إلى الحالة العامة للقبائل العربية المتسمة آنذاك بالعداء، وهو معجزة حقا؛ لأن شحذ تلك الهمم والسواعد اللازمة لبناء الحضارة يستلزم وجود قائد تأوي إليه، يـُؤَلِّف بينها ويخرج من أصلابها قادة بُناة، وهذا الزعيم لا يمكن أن يكون إلا صناعة إلهية، لأن صناعة البشر أخرجت ما لديها مما لا ينفع في قيام شيء، ولا أدل على ذلك من قول ابن إسحاق: «فلما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ....ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاورو[1] وتحالفوا وأعدوا للقتال. فـَتَمَرَّبَتْ بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عَدِيّ وبنو كعب بن لؤي على الموت ... فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا ... فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم . . . . . فيما تختلفون فيه. . . . . أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا. فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد»[2].

فشلت القبائل في إتمام البناء رغم توافقها وعزمها عليه، ورغم اجتهادها في توفير كل مستلزماته المادية والبشرية، فكانت لحظة التوافق القصيرةُ تلك مجرد رمادٍ ذُرَّ ليغطي نار الضغينة المستعرة التي كادت تتحول إلى حرب لا تُبقي ولا تذر.

لم يكن ظهور محمد ﷺ بالذات في تلك اللحظة الفارقة من قبيل الصدف، بل كان قدرا ربانيا واصطفاء يبين أن القيادة الرشيدة هي الأساس الأهم لقيام كل بناء، وهذا ما جعل لهذا الحادث دلالة رمزية عميقة مهدت لما سيتلوها، وكشفت لكل ذي عقل مُتَّقد حقيقة ارتباط أي بناء حضاري في الجزيرة العربية بوجود محمدﷺ؛ فهو القائد الذي اختص اللهُ عز وجل بإعداده لَمَّا حفظه . . . . باليـُتْمِ . . . . من تسرب شوائب تربية الآباء إليه. قائد لم يَسْعَ إلى الخلود لَمّا خُيِّر بين ذلك وبين ربه فاختار ربه، ولم يَسْعَ قط إلى دنيا ولا إلى مال ولا جاه، وقد عَرَض عليه كُلَّ ذلك عتبةُ بن ربيعة . . . . . لما استخلفته قريش . . . . . مقابل الكف عن الدعوة إلى الله عز وجل، قال: «يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا، سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد مُلْكا ملَّكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رِئيا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك أطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه»[3]، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن رد عرضه بعد أن أسمعه من سورة (فصلت) آيات أَخَذَت لُبَّه وقلبت مزاجه.

أسَّسَ الله عز وجل للفعل الحضاري الإسلامي ببعثة رسول الله ﷺ، ولأن البناء الحضاري فعل جماعي، فقد أودع جَلَّ شأنه في رسوله ﷺ صفات نبيلة بلغت أعلى درجات الكمال البشري، حبَّبْه إلى قلوب الناس، ومكنته من حشد الطاقات اللازمة لبدء البناء، وجعلته قدوة في القول والفعل والسلوك، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾[4]، فهو ﷺ قدوة بقوله وعمله وخلقه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[5]، خُلقٌ شهد به المؤمنون والكفار على حد سواء؛ فمن حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو يخاطب بعض بطون قريش: {أَرَأَيْتُكم لَو أَخْبَرْتُكُم أَنَّ خَيلاً بِالوادي تُرِيدُ أَنْ تُغيرَ عَلَيكُم، أَكُنْتم مُصَدِّقِي؟ قالوا: نَعَمْ، ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقاً}[6]، كما أودع فيه ربه جل جلاله من

الرحمة ما جعل الناس يلتفون حوله؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[7]، فانتقلت تلك الخصلة من رسول الله ﷺ إلى أصحابه انتقال اقتداء واحتذاء، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[8]. وهو ﷺ قدوة أيضا في تواضعه؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لم يَكُن شَخصٌ أحبَّ إليهِم مِن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ، وَكانوا إذا رأَوهُ لم يَقوموا لما يعلَمونَ من كَراهِيتِهِ لذلِكَ»[9].

وكان رسول الله ﷺ لا يقطع أمرا –لم ينزل في وحي– إلا بعد استشارة أصحابه رضوان الله عليهم، وفي ذلك تربية لهم و تأسيس لمبدأ البناء الجماعي، ونبذٌ لذاتية الفرد والقبيلة السائدة آنذاك، قال ابن إسحاق: «وَأَتاهُ الخَبَرُ عَنْ قُرَيش بِمسيرِهِم لِيَمْنَعوا عِيرَهُم؛ فَاسْتَشَارَ النَّاسَ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قريش: فَقامَ أبو بكر الصديقُ، فَقالَ وَأَحسَنَ. ثم قام عُمَر بن الخطاب، فقال وَأَحْسَنَ، ثُمَّ قامَ المِقْدادُ بْنُ عَمرو فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، امضِ لما أَراكَ اللهُ فَنَحْنُ مَعَكَ»[10]. ورغم أن موقف أصحاب رسول الله ﷺ هذا خاص بتلك الأحداث الممهدة لغزوة بدر الكبرى، إلا أنه عامٌّ في كل ما سيقرره رسول الله ﷺ لاحقا، وفي هذا تأسيس لمبدأ وحدة الهدف الذي طريقه الطاعة للقيادة الرشيدة.

كان رسول الله ﷺ عَفُوّاً كاظما للغيظ رحيما، عَفْوٌ بَنّاء يتعدى زمانه، يقتفي ثمار النفع التي سيجنيها المذنبُ من عفو رسول الله ﷺ عنه، وتجنيها الأمة من ورائه؛ قال ابن القيم الجوزية رحمه الله (ت728هـ): «ولما استقر الفتح، وأَمَّن رسول الله ﷺ الناس كلهم، إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة؛ منهم من ارتد عن دينه، ومنهم من قَتَلَ مسلما غيلة[11]، ومنهم من كان يشتغل ويتسلى بهجائه ويذيعه بين الناس ... ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وكان قد خرج إلى اليمن كارها لدولة الإسلام وخائفا على نفسه، فاستأمنت له امرأته بعد أن فَرَّ، فأمَّنه النبي ﷺ وهو ابن أعدى عدو له في الدنيا... (وقدم على رسول الله ﷺ عام الفتح)، فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه وما عليه رداء، فرحا به، وترحيبا، وأسلم عكرمة، فَسُرَّ به رسول الله ﷺ سرورا عظيما، وحسن إسلامه، وكانت له موافق عظيمة في حروب الردة وحروب الشام»[12].

كان رسول الله ﷺ أحرص ما يكون على تبليغ رسالته عملا بقول ربه عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾[13]، فكان حرصه ذلك زادَهُ المعين ﷺ على تحمل عناد المعادين له، والصبرِ على أذاهم، فكان ﷺ لا يكل من دعوتهم راجيا أن يُخرج الله منهم أو من أصلابهم من يحمل مشعل رسالته، عن عائشة رضي الله عنها قالت –للنبي ﷺ–: {هلْ أتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟ قالَ: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ مِنهمْ يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أرَدْتُ، فانْطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ علَى وجْهِي، فَلَمْ أسْتَفِقْ إلَّا وأنا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا أنا بسَحابَةٍ قدْ أظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْرِيلُ، فَنادانِي فقالَ: إنَّ اللَّهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، فَنادانِي مَلَكُ الجِبالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، فقالَ ذلكَ فِيما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ، فقالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بَلْ أرْجُو

أنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصْلابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا}[14]، لقد أراد الرسول ﷺ أن يتعداه نفع هذه الرسالة إلى من سواه، بل وأن يتعدى ذلك النفع من اتبعه إلى من عاداه، وتلك صفة لا تكون إلى في القائد الرسالي المخلص لرسالته.

إن الاقتداء برسول الله ﷺ على الوجه المطلوب يتطلب من المسلم أن يكون رِساليا بدوره؛ لأن الدين الإسلامي رسالة، والرسالة تفقد صفتها إن لم تبلغ يد المرسَل إليه، ثم إن هذه الصفة متجددة فيها على الدوام؛ إذ كلما بلغت يَدَ من آمن بها وصدَّق، أصبح لزاما عليه تبليغُها لغيره، والرسول ﷺ لم يقصد برسالته قوما دون غيرهم، ولا زمانا دون زمان لَمَّا أمر بالتبليغ عنه، فعن عبد الله بن عمرو أن النبيﷺ قال: { بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً، وَحَدِّثُوا عن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ }[15].

هذه بعض الصفات التي جُبل عليها الرسول ﷺ، صفاتٌ جعلت أصحابه وكل المؤمنين به . . . على مر العصور . . . يحبونه ويجتهدون في الاقتداء به، يَشيمون بَرْقَه ويقتفون في الاعتقاد والقول والعمل أثرَه، يتتبعون خبره ويستفرغون الوسع من أجل نشر رسالته، ليتحقق مراده ﷺ ومراد ربه عز وجل فيهم؛ أن تبلغ رسالتُه كل الأصقاع هاديةً بانية؛ لأنها الرسالة الخاتمة التي لا يرجى بعدها دليل رشاد، وكل حضارة قائمة على غير أسسها . . . . . لا شك . . . . . حضارةٌ عرجاء ناقصة لا يرجى منها نفع ولا يُعلم لها من دون الزوال ملاذ، رسالة خاتمة جاء بها خاتم النبيئين ﷺ مزدانا بخاتم الكتب السماوية، فعاش بها ومن أجلها منافحا مستعجِلا بُدُوَّ ثمارها، حتى إن ربه لاحظ استعجاله كَمالَ أصلِها فهدَّأ بالقرآن الكريم فؤاده حين خاطبه:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٦﴾﴾[16].

عاش رسول الله ﷺ وفيا لرسالته مستوعبا فحواها، مُحصَّناً من شوائب الأنانية وحب الذات، متجردا من حب الدنيا زينتِها ومالِها وسلطانِها، وكان ﷺ رساليا حقا بحرصه على تبليغ دينه، قدوةً بصفاته النقية الصافية، فاستحق أن يكون اللبنة الأساس التي قام عليها صرح الحضارة الإسلامية. وكيف لا يكون ﷺ كذلك وهو المشمول بالرعاية الإلهية، المحفوظُ من الزلل، المنصورُ بالرعب، المؤيَّدُ بالوحي والتنزيل؟

المطلب الثاني: الأمن المرجعي

إذا كان إنجاز المشاريع العظيمة عملا بالغ الصعوبة، فإن تصميمها أصعب من ذلك بكثير؛ لأن التصميم يشمل تصور المشروع ودراسة جدواه والتحققَ من إمكانية تنفيذه ووضعَ خرائطه، وتلك كلها عمليات معقدة ومتداخلة. والمصممُ وإن كان حاذقا عالي الكعب في مهنته، لا بد أن يفوته من تفاصيل الأمور ما يجعله يكتشف . . . . هو أو غيره . . . . . بعض عيوب تصميمه أثناء تنفيذه أو بعد الانتهاء منه، فكم من بناء توقف قبل تمامه، أو سقط بعد قيامه، أو هُجر بعد أن جَرَّ مضرةً أكثر من منفعته! وإذا كان التصميم لبناء مادي بسيط . . . كالذي سلف . . . . بهذا التعقيد وتلك الصعوبة، فإن التنظير لبناء الأمم والحضارات أجَلُّ من ذلك وأخطر لتعلقه بالإنسان وسيلةً وغايةً، ولأن العقل البشري . . . . بما رُكِّب فيه من نقص . . . . أعجزُ ما يكون عن الإحاطة بما دَقَّ من دِقِّ الأمور وتوقعِ مآلاتها، فإن حاجة محمد ﷺ . . . . . وهو القائد الذي اصطفاه الله وأعده وأسس على وجوده للبناء الحضاري في الجزيرة العربية . . . . . ماسةٌ إلى مرجع كامل يتخطى نقصَ عقل الإنسان وقصورَه، فهو أمي لا يمتلك من المرجعيات النظرية اللازمة لبدء البناء أي شيء؛ أميةٌ مُعجزة لا مشينة، أمية أقرها الله جل شأنه وَجَهِدَ المشككون في نبوته واستفرغوا الوسع من أجل نفيها عنه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾[17]؛ قال الإمام الطاهر ابن عاشور (ت 1973م) في تفسير الآية: «وفي وصف الرسول الأمي بأنه يتلو على الأميين آيات الله، أي وحيه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب، أي يلقنهم إياه كما كانت الرسل تلقن الأمم الكتاب بالكتابة، ويعلمهم الحكمة التي علمتها الرسل السابقون أُمَمَهُم، في كل هذه الأوصاف تَحَدٍّ بمعجزة الأمية في هذا الرسول ﷺ؛ أي هو مع كونه أميا قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أممهم ولم ينقص عنهم شيئا، فَتَمَحَّضَتِ الأمية للكون معجزةً حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين مثل موسى»[18].

نزل الوحي إذن؛ وحي الإله الذي خص به من اصطفى من رسله وأنبيائه منتهيا إلى أعظمهم مكانة وأعزهم قدرا، رسول الله محمد ﷺ الذي أصبحت معرفته وتصديقه ضرورة، بل واجبا على كل من انتهى إلى مسامعه خبر بعثته، قال ابن القيم الجوزية رحمه الله: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل»[19] وقد سَبق اضطرارَ العباد إلى معرفة الرسولﷺ وما جاء به اضطرارُ محمد ﷺ إلى معرفة الحقيقة، حقيقة وجود الله الخالق، فجاء الوحي ليخلصه من حيرته وَلِيُتِمَّ نحت شخصيته ويعلن انتظام عِقد إعداده.

قال أبو العباس شهاب الدين أحمد القسطلاني (ت923هـ) مُعرِّفا الوحيَ اصطلاحا: «الوحي في اصطلاح الشرع: إعلامُ اللهِ تعالى أنبيائَه الشيء، إما بكتاب أو رسالة مَلَكٍ، أو منام، أو إلهام ...وقد يُطلق على الموحى كالقرآن والسنة من إطلاق المصدر على المفعول»[20]، يشير التعريف إلى وحدة مصدر الوحي رغم تعدد طرقه، وهي خاصية تضمن تحقق سمات عدة في الوحيين وتشريعاتهما أبرزُها:

1. . . . الأمان والسلامة: شكلت حقيقة الوحي . . . . . في بدايته . . . . . هاجسا عند رسول الله ﷺ؛ إذ خاف أن يكون الذي أتاه في غار حراء شيطانا مُوَسْوِسا، فما كان من زوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها إلا أن تأكدت . . . . . بحكمتها . . . . . من كونه مَلَكاً مُرسَلا؛ قال ابن إسحاق: «وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير: أَنَّهُ حُدِّثَ عَنْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَيْ ابْنَ عَمِّ، أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِصَاحِبِكَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ إِذَا جَاءَكَ؟ قَالَ :نَعَمْ ، قَالَتْ: فَإِذَا جَاءَكَ فَأَخْبِرْنِي بِهِ. فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِخَدِيجَةَ :يَا خَدِيجَةُ، هَذَا جِبْرِيلُ قَدْ جَاءَنِي، قَالَتْ: قُمْ يَا ابن عَمِّ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِي الْيُسْرَى، قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ :نَعَمْ، قَالَتْ: فَتَحَوَّلْ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِي الْيُمْنَى، قَالَتْ: فَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ عَلَى فَخِذِهَا الْيُمْنَى، فَقَالَتْ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ :نَعَمْ .قَالَتْ: فَتَحَوَّلْ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي، قَالَتْ: فَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ فِي حِجْرِهَا، قَالَتْ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ :نَعَمْ، قَالَ: فَتَحَسَّرَتْ[21] وَأَلْقَتْ خِمَارَهَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي حِجْرِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ :لَا، قَالَتْ يَا ابن عَمِّ، اثْبُتْ وأبشر، فَوَ اللهِ إِنَّهُ لَمَلَكٌ وَمَا هَذَا بِشَيْطَانٍ}»[22].

طمأنتْ أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فاطمأن، وتوالت لقاءاته ﷺ مع جبريل عليه السلام الذي يحمل كلَّ مرةٍ ما يُثَبِّت الفؤاد ويؤكد سلامة الوحيين من تسلل أهواء الناس وأخطائهم، وحفظهما من تحريف شياطين الجن والإنس

وتحويرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[23]، وقال الإمام ابن حزم رحمه الله (ت 456هـ): «فمضمون عند كل من يؤمن بالله واليوم الآخر أَنْ تكفل الله عز وجل بحفظه (القرآن) فهو غير ضائع أبدا، لا يشك في ذلك مسلم، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم كله وحي بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَٰحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[24]. والوحي ذِكْرٌ بإجماع الأمة كلها، والذكر محفوظ بالنص، فكلامه عليه السلام محفوظ بحفظ الله عز وجل ضرورة»[25].

بدأت الدعوة المحمدية، وشرعت في كنس مخلفات الجاهلية، وكان أول ما بدأت به تصحيحُ العقيدة وفكُّ أَسْرِ العقول من أغلال الشرك والوثنية، وقد باشر رسول الله ﷺ هذه المهمة الأساسَ وهو يعلم أن فتح تلك القلوب المقفلة أمر دونه عقبات وصعاب، لكنه ﷺ يدرك أن ذلك يستحق الصبر والعناء؛ لأنه ﷺ كان في حاجة إلى سواعد وعقول تباشر معه عملية بناء الدولة الإسلامية، وأن تلك العقول تحتاج التوحيد لكي تُطلق طاقاتها؛ لأن التوحيد الذي سبيله الوحيُ يكفي المرءَ عناء التيه في تعقيدات ماهية الخلق والخالق، ويوفر عليه جُهد البحث عن الحقيقة، ليسخر كل طاقته في مباشرة البناء والإنتاج.

وقد كان تصحيح العقيدة هَمَّ رسول الله ﷺ في كل مناسبة وحين، حتى صار التوحيدُ الركيزة الأساس للحضارة الإسلامية، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾[26].

2 . . . . **الاكتفاء**: اكتفاءُ الوحي وعدم حاجته إلى الاقتباس من الشرائع الوضعية من اكتفاء الله عز وجل وغناه عن سواه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[27]. وقد نَسَخَتِ الرسالة المحمدية الرسائلَ السماوية السابقة . . . . . كدليل على الاكتفاء . . . . . نسخ تصديق وهيمنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[28]. وقال عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[29]. قال الإمام ابن كثير (ت 774هـ) في تفسير الآية: (هذه أكبر نِعَمِ الله تعالى على هذه الأمة؛ حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء)[30].

يدل اكتفاء الوحي بذاته وغناه عن غيره على اكتفاء الحضارة الإسلامية بنفسها مرجعياً وعدم حاجتها إلى الأخذ من تشريعات غيرها من الحضارات، ولا أدل على ذلك من حجم التغيير الذي أحدثه رسول الله ﷺ بالوحي على أتباعه الأوائل؛ من ذلك ما جاء في الحوار الذي دار بين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والنجاشي ملك الحبشة، قال جعفر بن أبي طالب: «أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلَ

الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ... حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ... وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ... فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ...وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا؛ خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ»[31].

لقد نفض رسول الله ﷺ عن أتباعه غبار الجاهلية وألبسهم ثوب الحضارة الإسلامية والدعوةُ ما تزال في مهدها، فصحَّحَ عقيدتهم، وغيَّرَ عاداتهم الغذائية، وَطَهَّرهم من الفواحش حفظا لنسلهم وأعراضهم، وَوَصَلَ أرحامهم تنظيما لعلاقاتهم الاجتماعية، وأجرى العدل بينهم، وَشَرَعَ لهم ما يحفظ أموالهم ودماءهم. ولو كان في أعراف قبائل مكة والحضارات المجاورة لها ما يجدي نفعا لَأَحْدَثَ في الناس قدرا من التغيير كالذي سلف، فتأكَّدَ أنْ ليس فيها مما تحتاجه الحضارة الإسلامية من شيء.

3 . . . . . نبل المقصد: تصب تشريعات الوحيين كلها في اتجاه تحقيق مصلحة العباد ودفع ما يفسد حياتهم

في المعاش والمعاد؛ ذلك لأن المُشَرِّع هو الخالق ذاته، وهو الله الرحيم بعباده غيرُ المفتقر لهم، قال تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[32] وقال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[33]. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها»[34]. وقال الإمام الشاطبي رحمه الله (ت 790هـ): «اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وُضعت للمحافظة على هذه الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل»[35]، وهذه الكليات الخمس التي سعت الشريعة الإسلامية إلى حفظها من جانبَيِّ الإيجاد والعدم هي عماد البناء الحضاري؛ فالدين الحق هو الوعاء التشريعي الحافظ للكليات الأربعة الأخرى، وهو إلى جانب ذلك السبيل إلى تحقيق الاستقرار الروحي للفرد والجماعة. وحفظ النفس بالتشريعات والحدود ينمي الشعور بالأمن والأمان، ويؤدي إلى الاستقرار الذي بدونه لا يمكن بناء ولا عمران. وصَوْنُ النسل يضمن توفير اليد العاملة التي بدونها لا تقوم حضارة ولا يرتفع بنيان، وحفظ المال توفيرٌ للرساميل والأصول المادية اللازمة للقيام، والعقل فوق ذلك كلِّه أساس التكليف، والخيطُ الرفيعُ الناظم للكليات السابقة، ومهندسُ الحضارة المصممُ لتفاصيلها وخططها.

حرص رسول الله ﷺ من خلال سنته الشريفة الموازيةِ للقرآن والمفصلةِ لتشريعاته على تحقيق مصالح العباد الدنيوية والأخروية، تقول الدكتورة عقيلة حسين: «والسُّنة النبوية المباركة قامت على أصولٍ وكلياتٍ عامة، تُحقِّق في مجموعها، الحِكمة، والسماحة، والاتزان، والاعتدال، ومسايرة الفِطرة الإنسانية والواقعِ المعاش، والصلاحية للتطبيق، ويُسر التكاليف، ومراعاة اختلاف الأمزجة، والميول، والرغائب، وإقرار الأمن والسلام، والحرص على تطبيق العدل والمساواة والحرية، وصون الكرامة الإنسانية»[36].

4. . . . . العالمية: إن اعتماد الرسالة المحمدية الوحيَ الإلهي مرجعا يجعل منها رسالة عالمية؛ فمادام الله ربَّ العالمين، فإن هُداه يجب أن يصل إليهم جميعا، ومادام محمد ﷺ خاتم النبيئين، فإن رسالته هي الوسيلة المتبقية التي بها يصل شرع الله للناس

أجمعين، وقد أقر الله هذه الحقيقة لما قال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[37]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة: (يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ (قل) يا محمد: (يا أيها الناس) وهذا خطاب للأحمر والأسود ، والعربي والعجمي، (إني رسول الله إليكم جميعا) أي: جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة)[38]. وَعنْ جابر بن عبد الله قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: {أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأَيُّمَا رَجُلٍ مِن أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغَنَائِمُ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ}[39]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: {وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[40]. وعَنْ أَنَس بن مالك رضي الله عنه { أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَتَبَ إلى كِسْرَى، وإلَى قَيْصَرَ، وإلَى النَّجَاشِيِّ، وإلَى كُلِّ جَبَّارٍ، يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ تعالَى، وَليسَ بالنَّجَاشِيِّ الَّذي صَلَّى عليه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ}[41]. وكانت رسائله ﷺ لهم جميعا على شاكلة كتابه إلى هرقل قيصر الروم؛ فمن حديث ابن عباس قال: حدثني أبو سفيان مِنْ فِيهِ إلى فِيَّ قال: {...ثُمَّ دَعا (هرقل) بِكِتابِ رَسولِ الله فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعدُ فَإِنِّي أَدْعوكَ بِدِعايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ. فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[42]}[43].

تَحْفِلُ رسائل رسول الله ﷺ إلى ملوك فارس والروم والحبشة بالدلالات العميقة المغلفة بالعبارات المنتقاة الأنيقة؛ فقد استهلها ﷺ كلَّها . . . . بعد البسملة . . . . . بالتعريف بنفسه، وبيان أنه عبد الله ورسوله، لا ابنه كما يدعي أهل الملل والمعتقدات المنحرفة في أنبياءهم، ثم أنزل ﷺ كلَّ واحد منهم منزلته بالتعظيم إشارةً إلى أن غايته ﷺ دعوتُهم إلى الله وليس إنزالهم من فوق عروشهم، وتَجَلَّى ذلك تحيةً وسلاما طَمْأنةً لهم وإقرارا منه أن الحرب ليست مسعاه ﷺ من دعوتهم ولا مُرادَه، ثم دعاهم جميعا إلى الإسلام وتوحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة تصحيحا لعقيدتهم وتقويما. وتزكي وحدة فحوى رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك . . . . رغم اختلاف دياناتهم ولغاتهم وألوانهم . . . عالمية الرسالة المحمدية، كما تشكل نقدا صريحا لمرتكزات الحضارات المتاخمة للجزيرة العربية ومرجعياتها، وبيانا لما يعتريها من نقص رغم ما هي عليه من مظاهر التقدم المادي والتفوق العسكري والتنظيمي والصناعي، وهي إلى جانب ذلك كله إعلام وإيذان ببزوغ فجر حضارة جديدةٍ بمرجعيتها، منافسةٍ بقوة إيمان رجالها.

5 . . . . . الحرية: كان مقدرا للحضارة الإسلامية أن تنبثق من الجزيرة العربية حيث كان الإنسان . . . . . وهو عماد البناء الحضاري . . . . . تحت أغلال الرق والعبودية الكابحة للمبادرة والإنتاج؛ عبودية مردها سيادة الأعراف

الوضعية التي لا تقيم للضعيف وزنا، فكان لزاما أن يتدخل الوحي لينسخ الأعراف ويكسر الأغلال، ويحرر الإنسان ليبدأ البناء. قال سيد قطب (ت 1966م): «حين تكون الحاكمية العليا في المجتمع لله وحده –متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية– تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر ... وتكون هذه هي الحضارة الإنسانية؛ لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع ... ولا حرية في الحقيقة ولا كرامة للإنسان ممثلا في كل فرد من أفراده في مجتمع بعضه أرباب يُشَرِّعون وبعضه عبيد يطيعون»[44].

سَعَتِ الشريعة الإسلامية مُذ بدايتها إلى تحرير الإنسان عن طريق تنويع سبل الانعتاق من العبودية وإكثارها، وهكذا جُعِل عتق الرقبة كفارة لعدد كبير من الجرائم والأخطاء الاعتيادية كالقتل الخطأ والحنث والظهار واللَّطم. ولم تكتف الشريعة بذلك، بل جعلت تحرير الرقبة قربة تقرب إلى الله: قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾[45]. وقد كان رسول الله ﷺ يعتقُ الرقاب ويرغِّب في عتقها؛ فَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: {مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ.}[46] وعن أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ}[47].

أدرك رسول الله ﷺ مبكرا تلازم الحرية والبناء؛ فالعبد لا يمكن أبدا أن يسهم في بناء حضارة وطنٍ يُهان فيه وتداس فيه كرامته، وقد أعتق ﷺ أعدادا من العبيد، فكانت لهم اليد الطولى في بناء صرح الحضارة الإسلامية؛ فهذا زيد بن حارثة رضوان الله عليه وقد «أصابه سباء في الجاهلية؛ لأن أمه خرجت به تزور قومها بني مَعْن، فأغارت عليهم خيل بني القين بن جسر، فأخذوا زيدًا، فقدموا به سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، وقيل: اشتراه من سوق حباشة فوهبته خديجة للنبي ﷺ بمكة قبل النبوة وهو ابن ثماني سنين، وقيل: بل رَآهُ رَسُول اللَّهِ ﷺ بالبطحاء بمكة ينادي عليه ليباع، فأتى خديجة فذكره لها، فاشتراه من مالها، فوهبته لرسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه»[48]، فكان من السباقين للإسلام، قال إسحاق بن راهويه (ت238هـ): «أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ومن النساءِ خديجة ومن الصِّبيان عليّ، ومن العبيد زيد بن حارثة»[49]. ثم إن زيدا رضوان الله عليه كان قائدا عسكريا محنكا حنكةً استحق بها ثقة رسول اللهﷺ؛ فعن وائل بن داود قال: سمعت البَهِيَّ يحدث أن عائشة كانت تقول: {مَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي سَرِيَّةٍ إِلَّا أَمَّرَهُ عَلَيْهِم}[50].

صَنَع رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة ومن غيره من العبيد الذين أعتقهم هو ﷺ أو أصحابه رضوان الله عليهم نساء ورجالا، وحرر طاقاتهم الكامنة فيهم، فأسهموا في قيام الدولة الإسلامية وبناء حضارتها، واستحالوا قادة وأمراء فاعلين بعد أن كانوا خدما لا رأي لهم ولا وزن، تنخر أغلالُ الرق أعناقهم وتَقُتُّ قيودُ العبودية عزائمَهم.

خاتمة

عنِ العِرْباضِ بن سارية السُّلَمي، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَ قُول: {إِنِّي عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الكِتابِ لَخاتمُ النَّبِيِّين، وَإِنَّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طينتِه، وَسَأُ.نَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيل ذلك، دَعْوَةُ أَبِي إِبْ.رَاهيمَ، وبِشارَةُ عِيسَى قَومَه، وَرُؤْيا أُمِّي الَّتِي رَأَت أَنَّه خَرَجَ مِنْها نورٌ أَضاءَتْ لَهُ قُصورُ الشّامِ، وكذلك تَ.رَى أُمَّهاتُ النَّبِيِّين صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِم}، هذا الحديث ضاربٌ في الزمن ماضيه، مستغرق لمستقبله، يحمل أمارات الاصطفاء أكملَها وأبينَها؛ اصطفاءٌ سَبَقَ نفخ الروح في أب البشر كي يجعل كل مقارنة بين رسول الله ﷺ وأيِّ فرد من ذرية آدم عليه السلام ضربا من أضرُب العبث، ولِيُدَلِّلَ على أن المصطفى بلغ من درجات الكمال البشري ما يجعل منه قدوة لكل البشر، وفي الحديث اشتشرافُ شُهودٍ حضاري يسبق الزمان ويتعدى حدود المكان ليبشر بفتح ما وراء الجزيرة العربية! والبشارة هنا بشارة وحي إلهي محفوظٍ لا بشارة تنجيم بشري مردود؛ بشارة بقيام حضارة عظيمة أصَّل الحديث لركيزتين هما أهم ركائزها: الأولى القائدُ القدوة محمد رسول الله ﷺ بصفاته الحميدة وخلقه العظيم وسَ.مْتِه الحسن، والثانية الوحيُ الذي هو قوام السيرة النبوية، والمؤنسُ المصاحبُ لرسول الله ﷺ مصاحبةَ تربية وتعليم وتوجيه ومواساة، وهو الميزةُ التي تميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات؛ ميزةُ الاستمداد المباشر من التشريعات الإلهية المتصفةِ بالكمال والاكتفاء والشمولية والسلامة من الأهواء، الضامنةِ لمصلحة العباد والراعيةِ لحريتهم. ولا شك أن حضارة قائمة على هاتين الركيزتين ستكون فتحا غير معهود يُشْدِه المناوئين بالداخل والخارج بمرجعيته ومرتكزاته، وَبِقِيَمَهِ التربوية والأخلاقية التي غرسها قائده رسول الله ﷺ في أتباعه ليخلصهم بها من سماجة خلق الجاهلية، ولتكون لهم نبراسا يهتدون به وهم المقبلون على حمل مشعل تبليغ الرسالة وبناء الحضارة.

الهوامش:

[1] هكذا كتبت في المصدر.

[2] أبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط 3، 1410هـ-1990م، 218/1-224، بتصرف.

[3] أبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط 3، 1410هـ-1990م، 294/293/1.

[4] الأحزاب:21

[5] القلم: 4

[6] **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، ح 4770.

[7] آل عمران: 159

[8] الفتح: 29

[9] **سنن الترمذي**، كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، ح 2754، أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ح 12345، قال الألباني: حديث صحيح.

[10] أبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1410هـ-1990م، 275/2.

[11] قال العلامة علي بن سلطان القاري في **قتل الغيلة**: هو أن يُخدع ويُقتل في موضع لا يراه فيه أحد، والغيلة: من الاغتيال، وفي المغرب :الغيلة: القتل خفية، وفي القاموس :الغيلة بالكسر: الذريعة والاغتيال، وقتله غيلة، أي :خدعه فذهب به إلى موضع فقتله. (علي بن سلطان القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، تحقيق جمال العيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ، 19/3).

[12] ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، أبو عبد الله شمس الدين، **زاد المعاد في هدي خير البلاد**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1418هـ 1998م، 524/1.

[13] المائدة: 69

[14] **صحيح البخاري**، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له مل تقدم من ذنبه، ح 3231.

[15] **صحيح البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح 3461.

[16] القيامة: 16ـ 18

[17] الجمعة: 2

[18] محمد الطاهر ابن عاشور، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسية، ط 1، 1984م، 208/29.

[19] ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، أبو عبد الله شمس الدين، **زاد المعاد في هدي خير البلاد**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1418هـ 1998م، 69/1.

[20] شهاب الدين أحمد القسطلاني، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، دار الفكر بيروت، ط 1، 1421هـ/2000م، 83/1.

[21] الانحسار الانكشاف، حَسَرْتُ كُمِّي عن ذراعي أَحْسِرُه حَسْراً: كشفت. (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط 1، 1399هـ-1979م، مادة: حَسَرَ).

[22] أبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1410هـ، 1990م، 275/2، 270/1ـ271.

[23] الحجر: 9

[24] النجم: 4ـ1

[25] علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ط 2، 1403هـ-1983م، 201/2.

[26] يوسف: 108

[27] فاطر: 15

[28] المائدة: 48

[29] المائدة: 4

[30] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1419هـ، 26/3.

[31] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1421هـ/2000م، 111/2، بتصرف.

[32] الأعراف: 156

[33] الذاريات: 56-58

[34] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ط 1، 1406هـ-1986م، 147/1.

[35] أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق أبو عبيدة بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1417هـ-1997م، 31/1.

[36] عقيلة حسين، **الوسطية في السنة النبوية**، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 2011م، ص175.

[37] الأعراف: 158

[38] أبو الفداء عماد الدين محمد إسماعيل بن عمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1419هـ، 489/3.

[39] **صحيح البخاري**، كتاب الصلاة، باب قول النبي {جُعِلت لِيَ الأرضُ مسجدا وطَهوراً}، ح 438.

[40] **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس ونسخ الملل مجملة، ح 153.

[41] **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل، ح 1774.

[42] آل عمران: 64

[43] **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب ﴿۞ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ح 4553.

[44] إبراهيم حسين الشاذلي سيد قطب، **معالم في الطريق**، دار الشروق، عمان، ط 1، 1964م، ص 108.

[45] البلد: 11 ـ 13

[46] **صحيح البخاري**، كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿ F ÷o%&A] öFPsö÷ bs ÓöYEö]ZXæt ¾$ ﴾ وأي الرقاب أزكى؟ ح 6715.

[47] **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري، ومن أعتق جارية وتزوجها، ح 5083.

[48] أبو الحسن علي بن الأثير أبو الحسن، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ-1994م، 350/2.

[49] أبو حفص سراج الدين النعماني، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق الشيخ عادل أحمد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ-1998م، 186/6.

[50] أبو الحسن علي ابن الأثير أبو الحسن، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ-1994م، 350/2.